مكتبة آل ابن فهد
ودورها في ازدهار الحركة العلميّة

د. سليمان بن صالح آل كمال(★)

مُقَدِّمَة:

بدأ تكوين المكتبات المكيّة الخاصة ـ التي تُعَدُّ نواة المكتبات العامة ـ منذ صدر الإسلام، فبالرغم من أنَّه لا يوجد تاريخٌ مؤكَّدٌ يحدّد لنا بداياتها إلاَّ أنَّ هناك نصاً يشير إلى أنَّه كان لصفوان بن أمية الجمحي المكي المتوفى سنة (٤١ هـ، ٦٦١م) دار مصر بأسفل مكة فيها الوراقون(١).

وكان من مهامهم: بيع الورق وأدوات الوراقة، ونسخ الكتب وما يختص بها من تجليد وتهذيب... إلخ، وفي الغالب يكونون من طبقة العلماء والأدباء(٢).

كما يُعَدُّ نسخ الكتب مصدراً من مصادر الرزق والكسب الحلال الذي عرفه المجتمع المكي آنذاك، ممَّا يؤثِّر بدوره في انتشار وازدهار المكتبات، فالوراقة

(★) الأستاذ بقسم الحضارة والنظم الإسلاميّة ـ جامعة أم القرى (المملكة العربيّة السُّعوديّة).

(١) سُمِّيت بذلك لأنَّ تجارات صفوان كانت تأتيه من مصر، وقد يكون من بينها الورق الذي يصنع بمصر في هذه الفترة من نبات البردي. انظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله المكي (ت٢٥٠هـ): أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الثقافة بمكة المكرمة، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م، ٢٦٣/٢، والفاكهي، محمد بن إسحاق بن العباس المكي (ت بعد ٢٧٢هـ): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبد الملك بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط/٢، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، ٣٣٧/٣، ٢٤٣، و٢١٠/٤.

(٢) كان ياقوت الحموي صاحب كتابيْ: "معجم البلدان" و"معجم الأدباء" من الوراقين، وقد عني بتراجم زملائه في المهنة في كتابه الأخير، ٤٨/١، كذلك كان من الورقين ابن النديم، صاحب كتاب: "الفهرست". انظر: المقدمة، ص٥.

وتطوُّرها تُعَدُّ معياراً من معايير التقدُّم والرقي الحضاري العلمي، ممَّا يستوحي منه ازدهار الحركة العلميّة المكيّة المبكرة[1].

ثم نرى أحد أحفاد صفوان الجمحي يهتم بالكتب ويعتني بها، وذلك بحفظها للإفادة منها في الإطلاع لتثقيف العامة، فيما يشبه إلى حد ما مكتبة خاصة، ويتخذ لها داراً بمكة، ومن المحتمل أنْ تكون دار جده السابق ذكرها وصلت إليه عن طريق الإرث الشرعي.

فعن ذلك يقول الأصفهاني: "كان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه: شطرنجات، ونردات، وقرقات، ودفاتر فيها من كلّ علم، وجعل في الجدار أوتاداً، فمن جاء علَّق ثيابه على وتد منها، ثم جرَّ دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم"[2].

وبعد الفتوحات الإسلاميّة، وانتشار الإسلام شرقاً وغرباً، وازدهار الحضارة الإسلاميّة، وبحكم ما لمكة المكرمة من قدسيّة ومكانة في قلوب المسلمين؛ أخذ أبناء الأُمَّة الإسلاميّة من حُكَّام وأمراء وأثرياء وغيرهم بالتقرُّب إلى الله تعالى بإهداء العلماء المكيين والمجاورين نفائس الكتب والمخطوطات ووقفها عليهم، مما ترتَّب عليه إنشاء المكتبات الخاصة والعامة في المسجد الحرام والمدارس والأربطة المحيطة به، لحفظها من التلف، فتمكَّن طلاب العلم من الاستفادة منها،

(١) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي المكي (ت٨٣٢هـ): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد ومحمود الطناحي، مطبعة السُّنَّة المحمديّة، القاهرة، ١٣٨١هـ ١٩٦٢م، ٥٧/٦.

(٢) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن حسين بن محمد بن أحمد الأموي (ت ٣٥٦هـ): الأغاني، دار صعب، بيروت (د. ت)، ٥٢/٤.

وأضحت في متناول أيديهم بيسر وسهولة، ورصدت لها الأوقاف العظيمة لينفق من ريعها في الإشراف والعناية بها[1].

أمَّا أوَّل نص صريح ظهر لنا في التاريخ المكي يبين قيام المكتبات الخاصة فقد كان عام (٣٦٧هـ ـ ٩٧٧م) عندما أسَّس الأمير شرف الدين مكتبة ومدرسة، كانتا بديعة البناء، وموقعهما في أحد البيوت المطلة على المسجد الحرام بالقرب من باب السلام، حيث زوَّدها بالكتب المختلفة في عدّة معارف وفنون، ثم توالي بعد ذلك قيام المكتبات الخاصة[2].

هذا مع اهتمام وعناية العلماء المكيين أنفسهم بتأليف الكتب، وتصنيفها، ونسخها، وفهرستها، ووقف نتاجهم العلمي في العلوم والمعارف المختلفة على هذه المكتبات طوال فترات مستمرة ومتلاحقة، ومن أشهرهم أسرة آل ابن فهد[3].

(١) ذكر لنا الأزرقي أنَّه في عام (٤١٧هـ ـ ١٠٢٦م) دخل سيل عظيم المسجد الحرام، فوصل إلى خزائن الكتب، وأتلف الشيء الكثير منها. انظر: المرجع السابق، ٣١٢/٢، والفاسي: العقد الثمين، مرجع سابق، ١١٧/١–١٢٣، و عبد الله عبد الجبار: التيارات الأدبيّة في قلب الجزيرة العربية، جامعة الدول العربيّة، معهد الدراسات العربيّة العالميّة، ص ١٨٦– ١٨٧.

(٢) ابن دهيش، عبد اللطيف عبد الله: المكتبات الخاصة في مكة المكرمة، مكتبة النهضة، مكة المكرمة، ط/١ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ص ١٠، والمعلمي، عبد الله عبد الرحمن: معجم مؤلِّفي مخطوطات مكتبة الحرم المكي الشريف، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، ص ٩.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، مرجع سابق، مواضع متفرقة. لمزيد من الإطلاع ينظر: ٣٣٠/١، ٣٣٢ ، ٤٠٩، ٤١٠، ٤٣٢، ٧٤/٢، ٢٤٦، ٣١٩، ٤٤/٣، ٢٥٠، ٣٢٥، ٤/٥، ١٠٢، ١١٦، ٥٠١، ٢٣١/٦، ٢٧٦، ١٣٧/٧.

آل ابن فهد وأثرهم العلميّ في تكوين مكتبتهم الخاصة:

من خلال الجو العلميّ بالمسجد الحرام، والمدارس والأربطة المحيطة به والمليئة بالكتب والمكتبات، وبين أحضانها عاشت أسرة آل ابن فهد القرشيّة، إحدى الأسر المكيّة التي لها الفضل ومكانتها العلميّة في التأليف والنسخ والنشر لعلوم وفنون ومعارف متنوعة خدمت الإسلام، كعلوم الدين، ومنها: الحديث وعلومه، والفقه، والتفسير، وعلوم اللُّغة العربيّة وآدابها، والتاريخ والحضارة الإسلاميّة، وبخاصة المكي وما فيه من أحداث، حيث بلغت آثارهم فيه فقط نحواً من (١٣٠) كتاباً ورسالة[١].

ذكرهم الكتاني بقوله: "أبناء فهد في الرواة كثير، وهم بيت كبير بمكة"، ثم تطرَّق إلى أشهر علمائهم بقوله: "وأنت إذا تأمَّلت قلَّ أنْ تجد في بيت في الإسلام أربعة من الحُفَّاظ في سلسلة واحدة، من بيت واحد، يتوارثون الحفظ والإسناد، غير هذا البيت العظيم"[٢].

وممَّا لا ريب فيه أنَّ هذا البيت وما قام به من إنتاج علميّ أسهم إسهاماً قيماً في تنمية رصيد المكتبة الإسلاميّة، وتزخر كتب التاريخ والتراجم بأسماء الكثير من هؤلاء الأعلام الأفذاذ[٣]. فقد أورد لنا مؤرخ مكة تقي الدين الفاسيّ المتوفي سنة (٨٣٢ هـ ـ ١٨٢٤م) لآل ابن فهد (١٢) ترجمة منهم ثلاث نساء، وذكر

(١) الهيلة، محمد الحبيب: التاريخ والمؤرخون بمكة، من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط/١، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، ص ١٠٠.

(٢) الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير (ت ١٣٨٢هـ): فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، طبع باعتناء وفهرسة إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ٢/٩١٠-٩١٢.

(٣) سوف يقتصر حديثنا على مَنْ له نشاط ودور بارز في تكوين المكتبة.

أنَّهم على المذهب الشافعي ـ فنرى فيما بعد جُلّ إنتاجهم الفقهي فيه ـ وعرَّف بمكان وتاريخ مولدهم ووفاتهم، ورحلاتهم العلميّة، وسماعهم، وإجازاتهم، ومشايخهم، ومؤلفاتهم، وكافة ما يتصفون به في حياتهم العلميّة والاجتماعيّة، حيث عاصر البعض منهم، فقال فيهم عبارة: "وهو والد صاحبنا المحدّث البارع" أو "ابن صاحبنا المحدّث البارع المفيد" إلخ[1].

ومن خلال تتبّعنا لهذه التراجم وجدنا أنَّ بداية ظهور أسرة آل ابن فهد في الحياة العلميّة المكية مع مطلع القرن الثامن الهجري الخامس عشر الميلادي تقريباً.

ونلحظ ذلك في ترجمة أحد علمائهم محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله، القاضي جمال الدين بن فهد القرشيّ، الهاشميّ، المكيّ، الذي عاش نحواً من (٥٣) سنة بمكة المكرمة، مولداً ووفاة، بين عامي (٦٨٣ - ٧٣٦هـ) (١٢٨٤ – ١٣٣٥م)[2].

وفي الغالب صاحب ذلك بداية تكوين مكتبتهم من: تأليف، واستنساخ، وشراء للكتب.

وحين ذكر الفاسيّ صاحب الترجمة السابقة تطرَّق لبعض أعماله العلميّة فقال: "... وغير ذلك من الكتب والأجزاء، بقراءته، وقراءة غيره"، وأضاف:

(١) لمزيد من الإطلاع حول هذه التراجم ينظر: العقد الثمين، الأجزاء والصفحات التالية: ٧٩/٢، ٢٩٦، ٣٣٣، ٣٤٢، ١٤٥/٣، ٤٠٣، ٨٢/٤، ٤٠٨/٥، ٤٤٧/٧، ٢٥/٨، ٣٩، ١١٧، ١٢٩، ١٤٤، ٢٦٨، ٣٢٩، ٣٥١.

(٢) المرجع السابق، ٧٩/٢.

"وقفت له على إجازة كتبها لجدي أبي الفضل النويري، في عرضه عليه لجميع كتاب التنبيه في الفقه له جميع مروياته"[1].

وفي ترجمة أخرى لأحد أبناء آل ابن فهد، هو أبو زرعة محمد بن تقي الدين محمد بن فهد المتوفي في حياة والده عام (٨٢٦هـ ـ ١٤٢٢م) ذكر الفاسيّ ما نصه: "ابن صاحبنا المحدث البارع المفيد... حفظ القرآن العظيم، وعدّة كتب، منها: كتاب في الحديث ألَّفه له والده ووسمه بـ "بغية المريد وبغية المستفيد"، و"الحاوي الصغير في الفقه"، و"الألفية لابن مالك"، عرضهم عليَّ فأجاد.. وكتب بخطه جملة فوائد حديثية وغيرها، ذكر لي والده أنَّه استفاد منه جملة، جمع رباعيّات صحيح مسلم، وقد رتّبها والده على المعجم. ومناقب الإمام الشافعي مختصرة ومعجم شيوخه جميع ذلك مسودات عاجلته المنية عن تبيضها"[2].

أبان النص السابق بعض محتويات مكتبة تقي الدين محمد بن فهد، والمتمثلة في مؤلَّفات له ولابنه أبي زرعة محمد بن فهد الذي توفي شاباً وله من العمر (١٨) سنة، وترك مؤلَّفاته مسودات، حيث كانت متنوعة في: الحديث، والفقه، واللُّغة.

وكما أسلفنا فآل ابن فهد على المذهب الشافعي، لذلك نراه يكتب في مؤلّف مختصر عن مناقب إمام المذهب ـ الشافعي ـ وللتسهيل على القارئ

(١) الملاحظ أنَّه هو الوحيد من آل بن فهد تقلَّد منصباً دينيّاً هو القضاء. انظر: المرجع السابق، ٨٠/٢-٨١.

(٢) المرجع السابق نفسه، ٣٤٢/٢-٣٤٣. وأورد السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ) ترجمته في: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة دار الجيل، بيروت، ط/١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ١١١/١١، نقلاً عن الفاسي، إلاَّ أنَّه ذكر جرد رباعيّات مسلم.

يقوم والده بترتيب رباعيّات صحيح مسلم على حروف المعجم، ولم يغفل ذكر مَنْ تتلّمذ على يده من مشايخه، حيث ألَّف في ذكرهم معجماً خاصاً بهم.

ثم ذكر السخاوي المتوفي سنة (٩٠٢هـ ـ ١٤٩٦م) آل ابن فهد وأورد لهم نحواً من (٥٣) ترجمة منها (٢٤) لنسائهم، و(٢) متكررة مع الفاسي، فقد استقى معلوماتها منه، هي ترجمة أبو زرعة محمد بن فهد السابق ذكره، وترجمة عائشة ابنة الوجيه عبد الرحمن بن فهد.

والملاحظ على هذه التراجم أنَّها تحتوي بالإضافة إلى أسماء العلماء أسماء: التجار، والرجال العاديين، والأطفال الذين ماتوا دون سن البلوغ؛ بل وبأشهر من ميلادهم، ولعلَّ مردّ ذلك لصحبة السخاوي لآل ابن فهد، وعلاقته الوطيدة بهم، فأحب أنْ يتجمَّل معهم بسرد تراجمهم في كتابه: "الضوء نفسه"، نسخ بدارهم على يد أحد أبنائهم العلماء، هو الحافظ عبد العزيز عمر بن فهد[1] ـ كما سنبيّنه في موضعه ـ.

أمَّا المؤسس الحقيقي لمكتبة آل ابن فهد الخاصة فهو الحافظ تقي الدين محمد بن فهد المتوفي سنة (٨٧١هـ ـ ١٤٦٦م)، والد أبو زرعة محمد بن فهد السابق ذكره، سمع الكثير من شيوخ بلده مكة المكرمة، ومن العلماء الوافدين إليها، وكتب عنهم، كما كتب عن بعض علماء الأمصار، الإسلاميّة في رحلاته العلميّة. ولغزارة علمه وسعة إطلاعه ألَّف الكثير في: علوم الدِّين، واللُّغة

(١) لمزيد من الاطلاع حول هذه التراجم ينظر: السخاوي: الضوء اللامع، مرجع سابق، الأجزاء والصفحات التالية: ٣٥/١، ٤٤، ٥٧٤، ٥٦/٢، ٢٤٢، ٥٢/٣، ١٠٥، ١٤٨، ٧٠/٤، ١١٨، ١٥٨، ٢٢٤، ٢٩٩، ٤٠/٥، ١٤٢، ١٤٨، ١٩/٦، ٩٤، ١٢٦، ٢١٥/٧، ٦/٨ –٨، ١٤، ١٦، ٢٠ ،٧٠، ١٥٥، ٢٦٢، ٢٣١/٩، ٢٨١، ٦٦/١، ٢٣٣، ٢٣٨، ٩٢/١، ١١١، ١٣٣، ٢١٨، ٢٦٥، ٢١/١٢، ٢٥، ٢٨، ٣٨، ٥٤، ٦١، ٦٣، ٦٧، ١٥٢.

العربيّة، والتاريخ، وغيرها من المؤلَّفات، ونسخ بيده الكثير من الكتب، وجمع له ابنه النجم عمر بن فهد معجماً وفهرساً، استفاد منه السخاوي كثيراً، وقال عنه: "أذن له في التدريس والإفتاء، وتميَّز في هذا الشأن، وعرف العالي والنازل، وشارك في فنون الأثر، وكتب بخطه الكثير، وجمع المجاميع، واختصر وانتقى، وخرج لنفسه ولشيوخه فمَنْ بعدهم، وصار المعول في هذا الشأن ببلاد الحجاز قاطبة عليه وعلى ولده بدون منازع"[(١)].

وقال عنه ابنه النجم عمر بن فهد: "ألَّف كتباً، وجمع المجاميع، واختصر وانتقى، وشارك في الفضائل، وبرع في الحديث متناً وإسناداً"[(٢)].

وبلغت مصنَّفاته التاريخيّة الحضاريّة لوحدها نحواً من (٣٨) كتاباً[(٣)].

هذه المؤلَّفات ـ مع ما جمعه وكتبه بخطه من كتب في رحلاته العلميّة ـ كانت تشغل حيزاً كبيراً من مكتبة آل ابن فهد، حيث عمَّ نفعها المجتمع المكي بمختلف فئاته العلميّة، بالإضافة إلى الوافدين المجاورين، وبخاصة إذا علمنا أنَّ لديه من هذه الكتب النَّادر والنفيس، وعن ذلك يقول السخاوي: "واجتمع له من الكتب ما لم يكن في وقته عند غيره من أهل بلده، وكثر انتفاع المقيمين والغرباء بها، فكانت أعظم قربة، خصوصاً وقد حبسها بعد موته"[(٤)].

---

(١) يعني ابنه الحافظ النجم عمر بن فهد. انظر: المرجع السابق، ٢٨٢/٩.

(٢) النجم عمر بن فهد، النجم عمر بن محمد بن محمد الهاشمي المكي (ت ٨٨٥هـ) : معجم الشيوخ، تحقيق محمد الزاهي، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص ٢٨٤.

(٣) الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص ١٣٨-١٤٦، ولناصر بن سعد الرشيد مقال بعنوان: بنو فهد مؤرخو مكة، نشر مجلة العرب، جمادى ١٣٩٧هـ ٩٠٨/١١ وما بعدها.

(٤) الضوء اللامع، ٢٨٢/٩.

وعن هذه الكتب قال ابنه النجم عمر بن فهد أيضاً: "اقتنى من الكتب الحسان والأصول ما لم يحصل لأحد من أهل بلده، وهو سمح العارية لأهل بلده وغيرهم من الغرباء، مِمَنْ عرف ومَنْ لم يعرف، وهذا شيء لا يعرف لأهل بلده"[1].

وأضاف: "وأوقف كتبه على أولاده الذكور وأولادهم، لتستمر العارية على عادتها، وليحصل الثواب والأجر، وله ما نوى"[2].

ويلاحظ أنَّ تقي الدين محمد بن فهد استخدم نظام الفهرسة للمكتبة، ليوفر على روادها الجهد والعناء في البحث، والاستفادة من الوقت في سرعة الإطلاع والإنجاز، وبعمله هذا اكتسب الريادة والسبق فيما يختص بنظام الفهرسة للمكتبات المكيّة الخاصة.

وهذا يدلُّ على كبر المكتبة وكثرة كتبها، حيث ذكر الفاكهي أنَّ مكتبة تقي الدين محمد بن فهد تحوي بين جنباتها نحواً من (٣٠٠٠) كتاب إلاَّ أنَّ ابنه النجم عمر بن فهد ذكر أنَّها دون هذا العدد بكثير، حيث قال ما نصه: "قال الإمام المتفنن نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي الفاكهي لما رأى فهرسة كتب الوالد، ورأى ما يدلُّ على أنَّ عِدِّتها ثلاثة آلاف، بل هي دون ذلك بكثير:

وقفت على فهرست كتب لشيخنا ... بها ذكره بين البرية قد فشا

فألفيتها ألفاً وألفاً وثالثاً ... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[3]

(١) معجم الشيوخ، ص ٢٨٤.

(٢) النجم عمر بن فهد: الدُّر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، نسخة مكتبة رضا رامبور بالهند، رقم ٣٦١٢، ورقة ٦١ ب.

(٣) لم أعثر له على ترجمة. المرجع السابق، ورقة ٦٢ أ.

وسواء كان عدد كتبها كما ذكر أو أقلّ من ذلك؛ فإنَّها لا ريب مكتبة قيمة غنية بأمهات المصادر، وتُعَدُّ ضخمة بالقياس إلى نسبة عدد السكان في ذلك العصر، إذا أخذنا في الإعتبار أنَّ بعض الكتب يتكوَّن من عدّة أجزاء، وأنَّ الكتاب في السابق يختلف عنه في الوقت الحاضر، من حيث ضخامة الحجم، وثقل الوزن، وكبر وسعة الحروف بسبب النساخة بالمداد إلخ.

والمهم أنَّه استفاد منها القاصي والداني من طلاب العلم والمعرفة، من أبناء مكة المكرمة ومَنْ قدم إليها لأداء مناسك الحج والعمرة ثم المجاورة، فعمَّت بذلك الفائدة العلميّة والمعرفيّة أبناء الأمة الإسلاميّة، ومن أسباب ذلك أنَّه كان لا يبخل في إعارة كتب المكتبة، وبفعله هذا أراد أنْ يتحاشى أنْ يدخل في عموم كاتمي العلم الذين يلجمون بلجام من نار يوم القيامة[1].

(١) قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سُئِلَ عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة)، رواه ابن ماجة في سننه، برقم ٢٦٤، ٩٧/١، وأبو داود: السنن، برقم ٣٦٥٨، ٣٢١/٣، والترمذي: السنن، ٢٩/٥، قال العلامة الشيخ محمد الحنفي في حاشيته على الجامع الصغير عندما تعرَّض للحديث السابق: "ويدخل في كتمه منع إعارة الكتب"، وقال يحيى مؤذن المكي: "وجعل بعضهم حبس كتب العلم من صورة الكتم سيما إنْ عزّت نسخة"، وأخرج البيهقي عن الزهري الذي قال: "إياك وغلول الكتب، قال: وما غلولها؟ قال: حبسها"، هكذا قاله المناوي في "شرح الجامع الصغير". للمزيد ينظر: أبو الخير مرداد، عبد الله بن أحمد المكي (ت ١٣٤٣هـ): مختصر نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة، جدة، ط/٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، ص ٦٤.

ثم نراه يقوم بوقفها على ذريته بعد مماته قربة لله تعالى، يحدوه قول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلاَّ من ثلاثة: إلاَّ من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له)[1].

قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه لهذا الحديث: "إنَّ عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدُّد الثواب له إلاَّ بهذه الأشياء الثلاثة، التي منها: الصدقة الجارية، وهي الوقف، وقال: "وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه"[2].

فلذلك نرى تقي الدين محمد بن فهد قام هنا بالجمع بين الفضيلتين الصدقة الجارية ـ المتمثلة في حبس الكتب على ذريته ليضمن بقاءها واستمراريّة دورها ـ وبين نشر العلم بغية الأجر والثواب من الله تعالى.

وأخذت مكتبة تقي الدين محمد بن فهد تكبر وتزدهر من بعده، وذاع صيتها بين العلماء، لما تحويه من نفائس وأمهات الكتب، تحت عناية ورعاية مَنْ وقفت عليهم من آل ابن فهد من الورثة من أبنائه وأحفاده العلماء، مع التجديد والإضافات لكلّ منهم عن طريق التأليف والنسخ والشراء، ويظهر ذلك من خلال تراجمهم، وكان أوّلهم ابنه الحافظ نجم الدين عمر بن فهد المتوفي عام (٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م)، ثم حفيده الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عمر المتوفي عام (٩٥٤هـ ـ ١٥٤٧م) ـ كما سنبيّنه في موضعه ـ.

---

(١) مسلم: الصحيح بشرح النووي، ٨٥/١١، ابن ماجه، المصدر السابق، ٨٧/١، أبو داود، المصدر السابق، ١١٧/٣.

(٢) مسلم، المصدر السابق نفسه، وكما هو معلوم الوقف ينقسم إلى قسمين: وقف عام يكون على المصالح والمنافع العامة، كالمسجد والمدارس والمستشفيات إلخ، ووقف ذري أو (خاص) ـــ بمعنى واحد ـ يكون على ذريّة الواقف، كما عمل تقي الدين محمد بن فهد في وقف كتب مكتبته على ذريّته الذكور.

وعمل أحد أحفاد تقي الدين محمد بن فهد في نسخ الكتب، وهو عبد الرحمن بن أحمد المتوفي عام (٨٧٣هـ ـ ١٤٦٨م)، فنراه يكتب ـ وهو بالقاهرة ـ بخطه كُتباً من جملتها نسخ من نظم السلوك للمقريزي، ثم يزود به مكتبتهم[١].

ومن أشهر من أثرى مكتبة آل بن فهد بالكتب القيمة من حيث التجديد والتطوير عن طريق التأليف والشراء والنسخ وعمل الفهارس من ورثة تقي الدين محمد بن فهد ابنه الحافظ نجم الدين عمر المتوفي عام (٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م) فعندما آلت إليه نظارة مكتبة والده، وأضحت تحت إشرافه المباشر؛ ضَمَّ إليها نتاجه العلمي الغزير في: الحديث وعلومه، والتراجم والتاريخ، "فقد كتب بخطه الكثير من الكتب والأجزاء، وجمع عدّة مجاميع، وعلّق فوائده حديثية وغيرها"[٢].

ورحل في طلب العلم أكثر من مرّة إلى المراكز الحضاريّة العلميّة المزدهرة ببلاد الشام ومصر وغيرها، واستفاد وأفاد، واقتنى من الكتب الشيء الكثير، وكان يركِّز على عمل الذيول والفهارس والمختصرات، وترتيب التراجم للمؤلَّفات التي تحويها المكتبة، فعن ذلك يقول السخاوي: "وكتب الكثير بخطه من المطوّلات وغيرها، وعرف العالي والنازل، وقمش في طول هذه المدة؛ بل وبعدها أيضاً عمن دبّ ودرج، وأخذ عمن هو قبله؛ بل ممن دونه... وخرج لنفسه ولأبيه "المعجم"[٣] و"الفهرست".. حتَّى إنَّه خرّج لأصحابه فمَنْ

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٧١/٤، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: للمقريزي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

(٢) يُسمَّى نجم الدين عمر، ومحمد أبو القاسم، ولكنه بـ "عمر" أشهر. انظر: النجم عمر بن فهد: معجم الشيوخ، مرجع سابق، ص ١٩٤، والدُّر الكمين، مرجع سابق، ورقة ١٦٠ ب.

(٣) طبع معجم الشيوخ بتحقيق وتقديم محمد الزاهي ضمن منشورات دار اليمامة بالرياض، سنة (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م).

دونهم، وعمل لنفسه المسلسلات، وانتقى وحرَّر الأسانيد، وترجم للشيوخ، ومهر في هذا النوع واستمدّ الجماعة قديماً وحديثاً من فوائده، وعوّلوا على اعتماده، وذيل على تاريخ بلده للتقي الفاسي[1]، وعمل الألقاب وتراجم شيوخ شيوخه، وجمع تراجم ست بيوت من بيوتات مكة، وأفرد كلّ بيت منها في تصنيف.. إلى غير ذلك ممَّا أكثره في المسودات، ووقف على أكثره كالمعجم لمن كتب عنه من الشعر، ورتَّب أسماء تراجم "الحلية" و"المدارك" و"تاريخ الأطباء" و"طبقات الحنابلة" لابن رجب، و"الحفّاظ" للذهبي، والذيول عليه على حروف المعجم، حيث يعيّن محل ذاك الاسم من الأجزاء والطبقة، ليسهل كشفه ومراجعته، وهو من أهم شيء عمله وأفيده"[2].

وبلغت آثاره ومؤلفاته التاريخيّة الحضاريّة لوحدها نحواً من (٣٩) كتاباً[3].

ومن أهمها ـ من وجهة نظري ـ كتابيْ: "إتحاف الورى بأخبار أم القرى"، و"الدُّر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين"[4].

ولم يكن النجم عمر بن فهد ـ رحمه الله تعالى ـ يبخل بمكتبته ونتاجه العلمي على طلاب العلم، حيث سلك نهج والده في ذلك، فكان جُلّ وقته وجهده لهم؛ بل إنَّه كان يكرم الغرباء منهم، بجعله داره نزلاً لهم، وخصّص لهم

(١) الدُّر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ولا زال مخطوطاً لم يُطْبَع.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، مرجع سابق، ١٢٨/٦–١٢٩.

(٣) الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، مرجع سابق، ص ١٤٩–١٥٥.

(٤) طبع كتاب إتحاف الورى في (٥) أجزاء من قِبَل معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلاميّ التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

الجزء العلوي لإقامتهم، فأصبحت كخلية النحل لكثرة الوافدين عليها، وأضحى منزله محطّ ومناخ العلماء ومقصد طلاب العلم والمعرفة[1].

ولم يقف الأمر على ذلك؛ بل إنَّه قام بنشر محتويات المكتبة، ومن ضمنها مؤلَّفاته التي اعتمد عليها أكابر علماء عصره بمصر وبلاد الشام، كابن حجر العسقلاني، والمقريزي، والسخاوي، وابن أبي عذيبة[2]، وغيرهم، فكانوا ينظرون إليه بعين الإجلال والتقدير، فهذا شيخه ابن حجر يكتب إليه في سنة (٨٥٠ هـ ـ ١٤٤٦م) قائلاً له: "وقد كثر شوقنا إلى مجالستكم، وتشوّقنا إلى متجدداتكم، ويسرّنا ما يبلغنا من إقبالكم على هذا الفنّ، الذي باد جماله وحاد عن السنن المعتبر عماله:

وقد كنَّا نعدّهم قليلاً فقد صاروا أقلّ من القليل

فلله الأمر...، إلى أنْ قال: ويعرفني الولد بأحوال اليمن ومكة، ووفيات من انتقل بالوفاة من نبهاء البلدين، وتقييد ذلك حسب الطاقة، ولا سيما منذ قطع الحافظ تقي الدين[3] تقييداته، وأنْ تيسر للولد الحضور في هذه السنة إلى القاهرة فليصحب معه جميع ما تجدَّد له من تخريج أو تجميع ليستفاد" [4].

ثم لَّما زار النجم عمر بن فهد القاهرة استعار منه ابن حجر كتاب أسماء شيوخه، وأخذ يقتبس منه تراجم كثيرة ضمَّنها كتابه: "الإصابة في تمييز

(١) السخاوي، مرجع سابق، ١٢٩/٦.

(٢) أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين المتوفي عام (٨٥٦هـ ـ ١٤٥٢م)، مؤرخ، مولده ووفاته في القدس، له عدّة مؤلَّفات تاريخيّة. انظر: السخاوي، المرجع السابق، ١٦٢/٢.

(٣) يقصد والده تقي الدين محمد بن فهد.

(٤) السخاوي، مرجع سابق، ١٢٩/٦.

الصحابة"، ثم يشير إليه بقوله: "وجدت بخط عمر بن محمد الهاشمي"، وكان يصفه بأنَّه من أهل العلم بالحديث ورجاله، وبعدّة صفات أخرى حسنة وجليلة[1].

كذلك أثنى عليه وعلى والده المؤرخ المصري المقريزي، ونعته بـ "صاحبنا"، وذكر أنَّهما محدثا الحجاز، وروى عنه في كراسة له في فضل البيت، وقال: "كتب إليَّ المحدث الفاضل أبو حفص بن عمر الهاشمي وشافهني به غير مرّة فذكر شيئاً"[2].

وقال عنه السخاوي: "صاحبنا ومفيدنا شيخ الجماعة... أمَّا أنا فاستفدت منه كثيراً، وسمعت منه في سنة خمسين وبعدها أشياء؛ بل قرأت عليه في الطائف ومكة أشياء"[3].

ومِمَنْ كتب عنه من علماء بلاد الشام المؤرخ أحمد بن عمر المقدسي، المشهور بـ (ابن أبي عذيبة) وغيره[4].

وهكذا تظهر آثار النجم عمر بن فهد العلميّة واضحة للعيان، بما تركه من مؤلَّفات في إثراء مكتبتهم، التي كانت بدورها زاداً ومعيناً يستقي منه طلاب العلم والمعرفة، بما تحويه من علوم ومعارف متعدّدة ومتنوعة، وما قام به من جهد في ترتيب أسماء التراجم في الكتب، ووضعه للفهارس، أعان الباحثين بالشيء الكثير في مؤنة البحث لتوفير الجهد والوقت، وحمل طلاب العلم علمه من

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ١٣٠/٦.

(٣) أي سنة (٨٥٠هـ ـ ١٤٤٦م). انظر: المرجع السابق، ١٢٦/٦، ١٣٠.

(٤) المرجع السابق، ١٣٠/٦.

بعده، فنرى مؤلَّفاته ـ وبالأخص ما يتعلَّق منها بالتاريخ المكي ـ ذات أثر واضح في كتبهم، وذلك حين الإكثار في النقل عنه.

ويُعَدُّ ابنه محي الدين يحيى المتوفي بعد والده النجم عمر بن فهد بنحو شهرين من العام نفسه سنة (٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م) من أدباء آل ابن فهد، فلقد كان له ذوق حسن في الشعر أهلّه لأنْ ينتخب من دواوين الشعراء الشيء الكثير، فجمع منه "مجاميع" كما جمع "فوائد كثيرة من النكت والغرائب" واختصر "الأمثال للميداني"، وألَّف في الأوائل كتاباً مجرّداً سمّاه: "الدلائل إلى معرفة الأوائل"[(١)]، ضمّ هذه المؤلَّفات إلى مكتبتهم القيمة.

كما تعلَّم هذا الأديب المكي اللوذعي الألمعي فنّ صناعة تجليد الكتب، ليتسنى له خدمة كتب المكتبة، من حيث ترميمها وصيانتها، للمحافظة عليها من التلف الذي يحدث من كثرة الإطلاع، لكي تستمر في أداء دورها الحضاريّ العلميّ[(٢)].

ويبرز دور أحمد بن تقي الدين محمد بن فهد المتوفي عام (٨٩٠هـ ـ ١٤٨٥م) في إنماء مكتبتهم بنسخه الكتب، ففي بداية حياته العلميّة عمل له والده كتاباً في الحديث وكتباً فقهية أخرى، وأسمعه على شيوخ مكة والقادمين عليها، وأجاز له خلق كثير، فلمَّا رأى فيه والده موهبة حسن الخط وجماله، والسرعة والدقة في الكتابة والنقل، أسند إليه نسخ كتب مكتبتهم، وجعله ملازماً له ولأخيه النجم عمر، لينتفعا منه في ذلك "وكتب بخطه الكثير من الكتب الكبار كـ "شرح

(١) المرجع السابق، ٢٣٩/١٠.

(٢) النجم عمر بن فهد: الدُّر الكمين، ورقة ١٧٣ أ.

البخاري" لابن حجر مرتين، و"تفسير ابن كثير"، و"تاريخ ابن الأثير"، و"شرح المنهاج" للدميري ولأبي الفتح المراغي ما يفوق الوصف" [1]. وعمله في النساخة لم يقتصر على آل بيته؛ بل امتدّ للعلماء المجاورين، منهم على سبيل المثال السخاوي، الذي قال عنه: "وقد حملت عنه أشياء في المجاورة الأولى، ثم لقيته في المجاورتين بعدها، وكتب لي أشياء من تصانيفي"[2].

هذه الأعمال القيمة استفاد منها أيضاً أبناء الأُمَّة الإسلاميّة، حيث بلغت الهند شرقاً، فإنَّ ابنه القسم المتوفي بعد سنة (٨٩٠هـ ـ ١٤٨٥م) عندما رحل إليها حمل معه نسخة من كتاب "فتح الباري شرح صحيح البخاري" لابن حجر العسقلاني بخط والده، وقدَّمها هدية لبعض ملوكهم، وكان يقوم من هنالك بمراسلة والده وعمّه النجم عمر بن فهد، ويطلب منهما أنْ يمداه ببعض المؤلَّفات، ففعلا ذلك، "فكتب له عمه النجم عمر فهرساً لبعض مروياته، ثم ابن عمه أربعين من المسلسلات" هذا مع ما يكتبه من تصانيف[3].

كذلك لازم ابن ابنه عبد الرحمن بن القسم المتوفي سنة (٨٩٦هـ ـ ١٤٩٠م) السخاوي في مجاورته الثالثة، وسمع منه المسلسل وغيره، وقرأ عليه، وكتب عنه أشياء[4].

(١) السخاوي، مرجع سابق، ٩٢/١١.

(٢) كانت مجاورة السخاوي الأولى في سنة (٨٥٠هـ ـ ١٤٤٦م)، والتي بعدها في سنتين متتاليتين هما عامي (٨٨٦ـ٨٨٧هـ) (١٤٨١ـ١٤٨٢م). وللمزيد حول معرفة عدد مجاوراته ينظر: المرجع السابق، ١٤/٨، ٩٢/١١.

(٣) المرجع السابق، ١٣٣/١١.

(٤) المرجع السابق، ١١٧/٤.

أمَّا شؤون المكتبة وإدارتها فقد آلت بعد النجم عمر بن فهد إلى ابنه الحافظ عز الدين عبد العزيز المتوفي سنة (٩٢٢هـ ـ ١٥١٧م)[١]، فنهج نهج مَنْ سبقه من علماء آل ابن فهد بالعناية بالمكتبة، وزاد في كتبها من خلال رحلاته العلميّة المتعدّدة، التي قام بها إلى بلاد مصر والشام أكثر من مرّة للتزوُّد بالعلوم والمعارف، والاطلاع على كلّ جديد، فكان فيها يكتب الكتب بخطه، ويحضر مجالس الإملاء ليستملى منها[٢].

هذا مع ملازمته لعلماء بلده والوافدين إليها للمجاورة، ومنهم السخاوي الذي كان يلتقي به في مكتبتهم، فيقرأ عليه كلّ كتبه، التي هي من محتويات المكتبة، فقد كان منها الشيء الكثير[٣]. ومن بينها كتابه القيم: "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"، فقد نسخه بيده، ثم قام بقراءته ومقابلته مع المؤلِّف[٤].

فعن ذلك قال السخاوي: "الحمد لله أنهاه عليَّ قراءة ومقابلة، مفيداً مجيداً، محرّراً وللمحاسن مظهراً، كاتيه الشيخ الإمام الأوحد، الهمام المرشد، والمحدث المفيد، الرّحال المسند، الحافظ القدوة، عبد العزيز، مفيد أهل الحجاز، ومسعد

(١) اختلفت المصادر التاريخيّة في تاريخ وفاته بين السنوات (٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢هـ)، واعتمدنا ما هو بالمتن على ما رجَّحه وحقَّقه الأستاذ/ فهيم شلتوت في مقدمة كتاب: عبد العزيز بن فهد غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت، طبع مركز البحث العلمي التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ودار المداني بجدة وشركة مكة للطباعة والنشر، ص١٣ وما بعدها.

(٢) السخاوي، مرجع سابق، ٢٢٥/٤، والنجم عمر بن فهد: معجم الشيوخ، ص ٣٣١.

(٣) السخاوي: مرجع سابق، ٢٢٥/٤-٢٢٦.

(٤) كان ذلك في سنتي (٨٩٨ـ٨٩٩هـ) (١٨٩٢ـ١٨٩٣م). انظر: السخاوي، مرجع سابق، ٢١٥/٧، ٦٦/١، ١٦٨/١٢.

القاطنين ـ فضلاً عن الغرباء ـ بما يسعفهم به بدون المجاز، نفع الله تعالى به، ورفعه في الدارين لأعلى رتبة"[1].

وحين أحسَّ في نفسه التمكُّن من العلم والفهم أخذ بالتأليف في الحديث والتاريخ، فبرع فيهما، وكتب بخطه جملة من الكتب والأجزاء[2]. حيث بلغت مؤلَّفاته في التاريخ والحضارة وحدها نحواً من (١٤) كتاباً، ومن أهمها ـ في اعتقادي ـ "بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى"، بدأ فيه من حيث انتهى عنده والده النجم عمر بن فهد سنة وفاته (٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م) على نسق والده في: "إتحاف الورى"، كما أكمل بعض مؤلَّفاته والده التاريخيّة الحضاريّة[3].

وأثنى عليه السخاوي بقوله: "وليس بعد أبيه ـ يعني النجم عمر ـ ببلاد الحجاز مَنْ يدانيه في الحديث، مع المشاركة في الفضائل وجودة الحفظ والفهم" إلى أنْ قال: "وهو حسنة من حسنات بلده"[4].

ثم تولَّى الإشراف والنظارة على المكتبة من بعده ابنه الحافظ جار الله محمد بن عبد العزيز بن فهد المتوفي سنة (٩٥٤هـ ـ ١٥٤٧م)، وقد كان ملازماً لوالده منذ نعومة أظافره، عرَّفته هذه الملازمة بقيمة الكتاب، وأكسبته الخبرة في الحفاظ على المكتبة وتطويرها، وتم له ذلك عن طريق التأليف والشراء، كما أخذ العلم

(١) المرجع السابق، ٦٦/١٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ٢٢٦/٤.

(٣) الهيلة: التاريخ والمؤرخين بمكة، ص١٧٢–١٧٩.

(٤) السخاوي، مرجع سابق.

عن والده وعلماء بلده ومَنْ قدم إليهم للمجاورة، منهم السخاوي في مجاورته الرابعة[1].

ورحل للاستزادة من العلم والمعرفة ـ كأسلافه من آل ابن فهد ـ إلى كلّ من مصر والشام وغيرها من المدن المزدهرة علميّاً، وأخذ يجمع الشيء الكثير مِمَنْ قابلهم، فألَّف في: الحديث وعلومه، واللُّغة، والأدب، والتاريخ، منها: "تحقيق الرجا لعلو المقر ابن أجا" ومعجماً ذكر فيه شيوخه والشعراء الذين سمع منهم الشعر، وكتاب: "التحفة اللطيفة في بناء المسجد الحرام والكعبة الشريفة"[2]، وأُحصيت مؤلَّفاته في التاريخ والحضارة لوحدها فبلغت نحواً من (٣٥) كتاباً، من أهمها في التاريخ المكي: "نيل المنى، بذيل بلوغ القرى، لتكملة إتحاف الورى"، وهو ذيل لكتاب والده: "بلوغ القرى"، واصل فيه عن أخبار مكة المكرمة من حيث انتهى والده[3].

وكان جار الله بن فهد ـ بالإضافة إلى ما ذكر من التقائه بالعلماء والأخذ عنهم ـ يراسل صديقه زميل الدراسة مؤرخ الشام شمس الدين بن طولون في كلّ عام مع الحجاج، ليعرِّف كلّ منهما صاحبه بما استجدّ لديه من أحداث ومعلومات علميّة حول المؤلَّفات وتواريخ وفيات الأعلام ومعلومات أخرى في

(١) السخاوي المرجع السابق نفسه، ٥٢/٣.

(٢) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد بن أحمد (ت١٠٦١هـ): الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، وضع حواشيه خليل المنصور، نشر دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط/١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، ١٣١/٢.

(٣) الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة، ص١٩٧–٢١٣.

هذا الإطار، ممَّا ينعكس ذلك بدوره الإيجابي في تنمية المكتبة، حيث أضحت مورداً من مواردها المعلوماتية المهمة[1].

وهكذا توارث آل ابن فهد مكتبتهم أباً عن جد، مع النظارة والأشراف والتجديد، بإضافة كلّ منهم في إدارته لها ما يحصل عليه من كتب، عن طريق التأليف والشراء والنسخ، ويؤكِّد ذلك ما ذكره عمر الشماع المتوفي سنة (٩٣٦هـ ـ ١٥٢٩م) [2]، أثناء استعراضه لنسخة من رحلة ابن رُشَيْد[3] بخطه بقوله: "وهي مودَعة في جملة كُتب ابن فهد، وعليها خط الحافظ تقي الدين بن فهد، ثم بعد موته دخلت نظر ولده الحافظ نجم الدين، ثم استولى عليها ولد النجم المذكور شيخنا الحافظ عز الدين، ثم ولد العزّ المذكور صاحبنا المجتبى جار الله، أمتع الله بحياته"[4].

(١) الغزي، مرجع سابق، ٢٢٣/١، ١١٨/٢، ١٣٢، ١٥٧.

(٢) عمر بن أحمد بن علي الشماع: أبو حفص زين الدين الحلبيّ، الشافعيّ، من علماء حلب، وُلِدَ بها سنة (٨٨٠هـ ـ ١٤٧٥م)، له عدّة مؤلَّفات فقهيّة وتاريخيّة، وكانت وفاته بحلب أيضاً. للمزيد ينظر: الغزي، مرجع سابق، ٢٢٢/٢-٢٢٤.

(٣) محمد بن عمر بن محمد: أبو عبد الله محب الدين ابن رشيد العفريّ، السبتيّ، رحالة، عالم بالأدب، عارف بالتفسير والتاريخ، وُلِدَ بسبتة عام (٦٥٧هـ ـ ١٢٥٩م)، وتوفي بفاس عام (٧٢١هـ ـ ١٣٢١م)، ومسمَّى رحلته: (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة)، في ستة مجلدات. انظر: الزر كلي، خير الدين (ت ١٣٩٦هـ): الأعلام، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٦، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م، ٣١٤/٦.

(٤) الهيلة، مرجع سابق، ص ١٠٣، نقلاً عن الشماع، سفينة نوح، ورقة ١٦٣ ب.

وهناك العديد من الكتب التاريخيّة الحضاريّة بخطوط آل ابن فهد ـ من تأليفهم وتأليف غيرهم ـ محفوظة بمكتبتهم، أطلع عليها (الشماع) واستفاد منها أيّما استفادة[1].

وآخر مَنْ ذكر من آل ابن فهد واتصف بالعلم عبد الرحمن بن فهد المتوفي سنة (٩٩٥هـ ـ ١٥٨٦م)، وصفه الكتاني بـ "العلامة المسند المحدث"، وساق نسبه إلى جده تقي الدين محمد بن فهد، وذكر رواياته، وقال ما نصه: "ولعلّه آخر فقهاء ومسندي بني فهد بمكة المكرمة، فإنَّه انقطع ذكرهم من بعد المترجم في الفهارس والأثبات التي وقفت عليها" [2].

ورافق ذلك خبر انقطاع مكتبتهم الخاصة، ولعلَّ مردّ ذلك إلى اختفاء العلماء من هذه الأسرة، مِمَنْ يعرفون قيمة الكتاب، فربّما قاموا ببيع محتوياتها للجهل المتفشي، والظروف الاقتصادية الصعبة التي عاشها المجتمع المكي آنذاك، أو لأسباب أخرى، حيث إننا نرى الكثير من البيوتات المكيّة العلميّة المشهورة كانت تبيع كتبها للأسباب السابقة على الموسريين من الحجاج، وبطبيعة الحال أدَّى ذلك إلى انتشار مؤلَّفات آل ابن فهد في مكتبات العالم المشهورة، فنراها محفوظة فيها إلى وقتنا الراهن[3].

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٣ – ١٠٥، ١٨٧–١٨٩.

(٢) الفهارس، ٧٣٤/٢.

(٣) ذكر أبو الخير مرداد في ترجمة أبو بكر زرعة المتوفي سنة (١٢٦٢هـ ـ ١٨٤٥م) ما نصه: "وكان المترجم، كغيره من أهالي البيوت القديمة بمكة، وقد حازوا الكتب الكثيرة المعتبرة، لا سيما تأليف أهل مكة، ثم أخذ يذكر البيوتات المكيّة العلميّة ذات التأليف إلى أنْ قال: "وكانت رائجة في زمانهم، ولا يضنون بها على أهلها، وأمَّا الآن فقد ذُكرت ولم يبق منها إلاَّ نزر لحصول التصاريف عليها، وذلك بسبب بخل ذريّتهم، من عدم إعارتها لأهلها لأجل القراءة فيها أو نسخها، حتَّى تصير منها نسخ =

فبذلك نستطيع القول: إنَّ فترة تكوين المكتبة كان منحصراً بين سنتي (٧٣٦ ـ ٩٩٥هـ) (١٣٣٥ ـ ١٥٨٦م) وهو التاريخ الذي يمثل وفاة أوّل وآخر عالم من علماء آل ابن فهد، حيث بقيت لهم الشهرة العلميّة بمكة المكرمة خلال هذه الفترة، أي بنحو قرنين ونصف من الزمان تقريباً. وممَّا ساعدهم على ذلك أنَّهم نذروا أنفسهم لخدمة العلم وطلابه، ولم يتولّوا المناصب الدينيّة كالقضاء، والإفتاء، والإمامة بالمسجد الحرام، أو المناصب الإداريّة الحكوميّة.

موقع المكتبة:

تقع مكتبة آل ابن فهد في دارهم بالقرب من المسجد الحرام، فقد جاء في: "مخطوط الدُّرر السنيّة والجواهر البهيّة من الأحاديث النبويّة والأخبار المرويّة، لمؤلِّفه تقي الدين محمد بن فهد ما نصه: "وانتهى تبييض هذا الجزء في مكة المنيفة، بمنزل مؤلِّفه جوار الكعبة الشريفة... في يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الثاني أحد شهور سنة خمسة وخمسين وثمانمائة"[(١)].

وذكر ابنه النجم عمر بن فهد الشيء نفسه في نهاية معجم شيوخه المخطوط، بقوله: "وكان الفراغ من تسويد ذلك في آخر يوم الخميس حادي عشر شوال سنة إحدى وستين وثمانمائة بمنزلنا بمكة المشرفة تجاه الكعبة"[(٢)].

= متعدّدة، أمَّا بيت المفتي فقد أكلت الأرض كتبهم، وأمَّا بيت الميرغني، وبيت شمس، وبيت مرداد، فقد أحرقت النار كتبهم، بسبب حريق حصل عندهم، وأمَّا بيت لاريس، وبيت الزرعة، فقد باعوا كتبهم على أهل الهند وأشبابهم.. إلخ". انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر، ص ٦٣-٦٤، غازي، عبد الله المكي (ت ١٣٦٥هـ): إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، مخطوط مكتبة د. عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان الخاصة، مصور عن مخطوط الشيخ محمد نصيف، ١٠١/٧.

(١) الهيلة، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٠١.

وسبقت الإشارة إلى أنَّ النجم عمر بن فهد بذل نفسه وفوائده العلميّة وكتبه للعلماء الغرباء الوافدين، بجعله منزله نزلاً لهم، حيث خصَّص لهم الجزء العلوي لإقامتهم، ويبدو أنَّ هذه الدار تتكوَّن من أكثر من طابق، تستوعب الضيوف والمكتبة[1].

وقد قصد عمر الشماع مكتبة آل ابن فهد، والتقى بقيمها والقائم على شؤونها في عهده الحافظ جار الله بن فهد، وكان الهدف من زيارته البحث عن نسخة من رحلة ابن رشيد بخط مؤلِّفها عليها تملك جده النجم عمر ـ كما أشرنا ـ فوصف جار الله بقوله: "ولى به صحبة أكيدة وتردُّد إلى منزله، فذهبت إلى منزل صاحبنا المذكور، ونظرت في الكتب، فرأيت الرحلة التي أشار إليها شيخنا (السيوطي) وانتقيت من فوائدها"[2].

وهذا يؤكِّد ما ذهبنا إليه من أنَّ المكتبة كانت بدارهم.

ثم إنَّ جار الله بن فهد ذكر أنَّ منزلهم يقع "قريباً من المسجد الحرام في زقاق كان يُعْرَف قديماً بـ "ابن عطيط"، وصار في عهدهم يسمى "الفهود"[3].

ولعلّ تسمية باب المسجد الحرام المسمى قديماً بـ "باب الفهود" أتت من هنا. فقد ذكر السنجاري المتوفي سنة (١١٢٥هـ ـ ١٧١٣م) في حديثه عن أبواب المسجد الحرام ما نصه: "باب الفهود وهو في الركن الغربي من الزيادة" [4].

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ١٢٩/٦، الغزي: الكواكب السائرة، ٢٣٣/١.

(٢) الهيلة، مرجع سابق، ص ١٠٢، نقلاً عن: سفينة نوح، ورقة ١٠٨ ب.

(٣) المرجع السابق نفسه، نقلاً عن جار الله بن فهد: نيل المنى، ورقة ٤١ ب.

(٤) السنجاري، علي بن تاج الدين المكي الحنفي (ت١١٢٥هـ): منائح الكرم بأخبار مكة والبيت وولاة الحرم، طبع مركز البحث العلمي التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، ٥٣٨/٣.

وكان قبل ذلك يُسمَّى بـ "باب زيادة دار النُّبوة"، وهو في غرب تلك الزيادة[1]. ثم تغيَّر اسم هذا الباب فيما بعد منذ القرن العاشر الهجري تقريباً باسم "باب القطبي"؛ لأنَّ بجواره كانت مساكنهم، وظلَّ بهذا الإسم إلى عهد المؤرخ المكي عبد الله غازي المتوفي سنة (١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م) الذي ذكر ما نصه: "بيت القطبي بحارة الشاميّة عند الباب الصغير للمسجد الحرام الذي بالركن الغربي اليماني ـ أي الجنوبي ـ من الزيادة، وكان اسمه "باب الفهود"، ثم اشتهر بـ "باب القطبي"، وهو إلى اليوم كذلك، لأنَّ مساكنهم كانت عنده، ومنه يأتون المسجد الحرام"[2].

فمن ذلك نستطيع القول: إنَّ مكتبة آل ابن فهد كانت في الجهة الشماليّة للمسجد الحرام، وأصبح الموقع في الوقت الراهن داخل المسجد الحرام بعد التوسعة السُّعوديّة التي تمت في عهد الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله تعالى ـ سنة (١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م)[3].

(١) ذكر باسلامة أنَّ هذا الباب لم يجدَّد بناؤه في العمارة التي تمت في سنة (٩٨٤هـ ـ ١٥٧٦م) في عهد السلطان مراد خان، وله منفذ واحد، ويعلو عن رواق الزيادة بثلاثة عشرة درجة، ولم يكتب عليه شيء. وهو لا يزال على عمارته التي أنشئت في خلافة المعتضد بالله العباسي سنة (٢٨١هـ ـ ٨٩٤م)، وهو الباب الأثري الذي بقي على بنائه القديم نحو ألف سنة، وهو لا يزال إلى عهد باسلامة المتوفي سنة (١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٤م). انظر: تاريخ عمارة المسجد الحرام، منشورات مكتبة تهامة، جدة، ط/٣، ١٤٠٠هـ١٩٨٠م، ص ١٣١.

(٢) إفادة الأنام، ٦٢٢/٧، السنجاري: منائح الكرم بأخبار مكة والبيت وولاة الحرام، مرجع سابق، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م، ٥٣٨/٣.

(٣) الكردي، محمد طاهر المكي (ت ١٤٠٠هـ): التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة، ٢١٣/٥.

الأثر الحضاريّ العلميّ لمكتبة آل ابن فهد:

بالرغم من أنَّ مكتبة آل ابن فهد كانت مكتبة خاصة تقع بدارهم إلاَّ أنَّ دورها الحضاريّ العلميّ والثقافيّ كان عاماً، انتشر في ربوع الأمصار الإسلاميّة، واستفاد منه الأكابر من العلماء الفضلاء خلال فترات متلاحقة، من أشهرهم على سبيل المثال: المقريزي المتوفي سنة (٨٤٥هـ ـ ١٤٤١م)، وابن حجر العسقلاني المتوفي سنة (٨٥٢هـ ـ ١٤٤٨م)، والسخاوي المتوفي سنة (٩٠٢هـ ـ ١٤٩٦م)، والسيوطي المتوفي سنة (٩١١هـ ـ ١٥٠٥م)، وعبد الحق السنباطي المتوفي سنة (٩٣١هـ ـ ١٥٢٤م)، وابن طولون المتوفي سنة (٩٥٣هـ ـ ١٥٤٦م)، وغيرهم كثير[1]، من خلال الطرق التالية:

أوّلاً: الرحلات العلميّة لعلماء آل ابن فهد:

سبق أنْ أشرنا إلى بعض منها، والتي كانت إلى كلّ من: مصر، والشام، واليمن، والهند، ففيها كانوا يحملون معهم نتاجهم العلمي، وما استجدّ لديهم بمكتبتهم إلى هذه المدن المزدهرة حضاريّاً، كرحلة النجم عمر بن فهد المتوفي سنة (٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م) إلى مصر، واصطحابه لبعض ما تجمَّع لديه من جديد المؤلَّفات، منها كتاب أسماء شيوخه، فنرى ابن حجر العسقلاني يطلبه منه، ويقتبس منه الشيء الكثير من التراجم، ويضمّنها كتابه: "الإصابة في تمييز الصحابة".

(١) السخاوي، مرجع سابق، ٦٦/٤، ١١٨، ١٢٩/٦، ٧/٨- ٨.

وعن ذلك يقول السخاوي: "ولما قَدِمَ رأيته استعار منه أسماء شيوخه، ورأيته ينتقي منها؛ بل ونقل عنه ترجمة في كتابه: "الإصابة"، فقال: وجدت بخط عمر بن محمد الهاشمي وذكر شيئاً"[1].

وهناك رحلة القسم بن أحمد بن فهد المتوفي بعد سنة (٨٩٠هـ ـ ١٤٨٥م) إلى الهند، وحمله معه من كتب المكتبة لنسخة من كتاب: "فتح الباري شرح صحيح البخاري" لابن حجر العسقلاني بخط والده، وقدَّمها هدية لبعض ملوكهم[2]. إلى ما هنالك من رحلات.

ثانياً: عن طريق المراسلات بينهم وبين علماء الأمصار:

منها مراسلة ابن حجر العسقلاني من مصر للحافظ النجم عمر بن فهد بمكة المكرمة، مطالباً إيّاه بتعريفه بمستجدات الأحداث لديه بالبلد الحرام واليمن، وبإخباره بوفيات النابهين من أبناء البلدين، وتقييد ذلك له مذكِّراً إيّاه بأنَّ والده الحافظ تقي الدين محمد بن فهد كان يفعل معه الشيء نفسه، وأنْ يشرع في هذا العمل من حيث انتهى إليه والده من أخبار، وبالطبع هذه التقيُّدات كانت تتم بمكتبتهم من ثنايا كتبهم[3].

كما ألَّف النجم عمر بن فهد كراسة في فضل البيت الحرام، استقى معلوماتها من مكتبتهم، وبعث بها إلى مصر للمقريزي شيخ مؤرخي عصره[4].

(١) السخاوي، مرجع سابق، ١٢٩/٦.

(٢) المرجع السابق نفسه، ١١٨/١١.

(٣) المرجع نفسه، ١٢٩/٦.

(٤) المرجع نفسه، ١٣٠/٦.

ومن نماذج المراسلات أيضاً مكاتبة القسم بن أحمد بن فهد ـ وهو بالهند ـ لوالده وعمه النجم عمر بن فهد، مطالباً إيّاهما أنْ يمداه ببعض مؤلَّفات مكتبتهم، فبعث إليه عمه النجم عمر بن فهد فهرساً لبعض مروياته، كما بعث إليه ابن عمه أربعين من المسلسلات[1].

كذلك كان الحافظ جار الله بن فهد يراسل كلّ سنة مؤرخ الشام ابن طولون، يخبره بما لديه في مكتبتهم من جديد المؤلَّفات، ويزوّده بتواريخ وفيات الأعلام بالبلد الحرام، وأخبار علماء اليمن ووفيات أعلامها، وأهم الأحداث التي بها، وفوائد علميّة أخرى، حيث يفعل ابن طولون الشيء نفسه، ويخبره بما لديه في بلاد الشام من أحداث[2].

ولم تقتصر فائدة هذه المراسلة على ابن طولون؛ بل استفاد منها مَنْ جاء من بعده من مؤرخي الشام كالغزي المتوفي سنة (١٠٦١هـ ـ ١٦٥٠م)[3].

ثالثاً: عن طريق إعارة كتب المكتبة:

من حسنات الحافظ تقي الدين محمد بن فهد قيامه بإعارة كتب المكتبة لأهل بلده العلماء والغرباء المجاورين سواءً عرفهم أم لم يعرفهم، ونظام الإعارة هذا "شيء لا يعرف لأهل بلده" فكان له فيه سبق الريادة، وهنا يبرز الدور الحضاريّ العلميّ في نشر العلم والثقافة بين أبناء المجتمع المكي والقادمين إليها للمجاورة والحج والعمرة، فتعم الفائدة، وبخاصة إذا علمنا أنَّه يمتلك في مكتبته

(١) المرجع نفسه، ١١٣/١١.

(٢) الغزي، مرجع سابق.

(٣) الغزي، المرجع السابق نفسه، ١١٨/٢.

من الكتب الشيء الكثير من النادر والنفيس[1].

ووصلت إعارة كتب مكتبة آل ابن فهد إلى مصر، حيث كان يستعيرها كبار العلماء للاستفادة منها في أبحاثهم العلميّة[2].

رابعاً: عن طريق الحج والمجاورة بالبيت الحرام:

لعب الحج والمجاورة بالبيت الحرام دوراً حضاريّاً مهماً في الحياة العلميّة المكيّة من خلال قدوم العلماء لأداء مناسكهم، ففيه يجتمعون بعلماء الحرمين الشريفين، يتبادلون فيما بينهم المعرفة والمعلومات، فتعم الفائدة بعضهم بعضاً في شؤونهم الدِّينيّة والدُّنيويّة، فيتم التلاقح الفكري بين الطرفين، وتقوى فيما بينهم روح المحبة والإخاء، كما أسهم الحجاج في نقل العلم والمعلومات من وإلى بلدانهم التي قدموا منها، فبوساطتهم تحمل الأخبار فيتم تبادل المنافع.

وبما أنَّ دار آل ابن فهد بجوار المسجد الحرام وبها مكتبتهم؛ فقد خصَّصوا الدور العلوي لاستضافة وسكنى العلماء الوافدين لبيت الله الحرام، الراغبين في مطالعة الكتب والتَّعرُّف على محتويات المكتبة[3].

ومن هؤلاء العلماء السخاوي أثناء حجّه ومجاورته أربع مرات، فكان فيها ينزل على آل ابن فهد ويجتمع بهم في مكتبتهم، ويقرأ في كتب المكتبة، ومنها بعض مؤلَّفاته، حيث كان بها الشيء الكثير، وينسخ ما يحتاجه منها بمساعدة أبنائهم العلماء الذين يجيدون الخط والنساخة، هذا مع الندوات والحوارات

(١) السخاوي، مرجع سابق، ٢٨٢/٩، النجم عمر بن فهد: معجم الشيوخ، ص ٢٨٤.

(٢) السخاوي، مرجع سابق، ١٢٩/٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

التي تتم بينهم[1].

فعن إحدى هذه المجاورات قال السخاوي عن نفسه: "وقرأ بها ـ أي مكة ـ من الكتب الكبار والأجزاء القصار ما لم يتهيّأ لغيره من الغرباء... وأعانه عليه صاحبه النجم بن فهد بكتبه وفوائده ودلالته على الشيوخ، وكذا بكتب والده"[2].

ومنهم أيضاً عبد الحقّ السنباطي الذي حجّ وجاور أكثر من مرّة، كان آخرها سنة (٩٣١هـ ـ ١٥٢٤م)، حيث نزل على آل ابن فهد في دارهم، فمرض وأدركته المنية لديهم، فقاموا بتجهيزه والصلاة عليه، ودفنه بتربتهم، وكتب الحافظ جار الله بن فهد بالحادثة إلى ابن طولون في الشام، واصفاً له إيّاها كأنَّه حاضراً لها[3].

كذلك من العلماء الذين استفادوا من مكتبة آل ابن فهد في حجّه ومجاورته لأكثر من مرّة عمر بن أحمد الشماع المتوفي سنة (٩٣٦هـ ـ ١٥٢٩م)، حيث كان كثير التردُّد عليها ـ كما سبق وأشرنا ـ لدرجة أنَّه ألَّف عنهم كتاباً بعنوان: "عرف الندّ في منتخب مؤلَّفات ابن فهد"، وهذا لا يتأتَّى إلاَّ بكثرة المطالعة في المكتبة لحصر مؤلَّفاتهم"[4].

وبما أنَّ الحج يكون في كلّ عام، ويؤديه الحُجَّاج مَنْ كان منهم مستطيعاً من كافة الأقطار الإسلاميّة، يجتمعون فيه على صعيد واحد، ثم يعودون إلى أوطانهم

(١) السخاوي، المرجع السابق، ٥٢/٣، ١١٨/٤، ١٢٦/٦-١٣٠، ٧/٨-٨، ٦٦/١٠، ٩٢/١١.

(٢) المرجع السابق، ٧/٨-٨.

(٣) الغزي، مرجع سابق، ٢٢٢/١-٢٢٣.

(٤) المرجع السابق، ٢٢٢/٢-٢٢٤.

بعد أداء نسكهم، هذه الرحلة المقدسة استفاد منها العلماء في اتخاذ الحُجَّاج كوسيلة لحمل ونقل الرسائل المتبادلة بينهم وبين علماء الحرمين الشريفين، فيما يختص بالوفيات للأعلام، وما حصل لديهم من إنتاج علميّ، بالإضافة إلى الأخبار الأخرى المتعلَّقة بشؤون الأُمَّة الإسلاميّة[1].

ومنهم جار الله بن فهد، حيث ذكر الغزي ما نصه: "وكان صاحب الترجمة ـ أي جار الله ـ صاحباً للشيخ شمس الدين بن طولون، ورفيقاً له في الأخذ عن جماعة من الشيوخ، وكان يكاتب كلّ واحد منهما صاحبه في كلّ سنة مع الحُجَّاج ويذكر له مَنْ يتوفى في كلّ سنة"[2].

خاتمة:

مِمَّا سبق عرضه تعرفنا على أشهر علماء آل ابن فهد، وبعض نتاجهم العلميّ، ودورهم في إثراء مكتبتهم، كما تعرَّفنا على أشهر رواد المكتبة، وبعض كتبها، وموقعها، ودورها الحضاريّ العلميّ، المتمثّل في: رحلاتهم العلميّة ومراسلتهم لعلماء الأمصار، وإعارتهم لكتبهم، وأثر الحج والمجاورة في ذلك.

(١) المرجع السابق نفسه، ١٣٢/٢.

(٢) المرجع نفسه.